جدل البرجماتية الإنسانية

وليام جيمس أنموذجا

أ. وردة معزي

جامعـــة باتنـــــة

يتناول المقال دراسة تحليلية نقدية، للفلسفة البراجماتية الإنسانية متخذا "وليام جيمس" أنموذجا .

باعتبار البراغماتية فلسفة عملية تطبيقية، تحث على الفعل و التقدم، إذن فهي دعوة إنسانية منطلقها الإيمان الراسخ بالكرامة الإنسانية، وبهذا تتقاطع البراجماتية مع المذهب الإنساني فينقطة المحور وهي اعتبار الإنسان، هو الموضوع الأصلي و الهدف النهائي لهما.

غير أن البراجماتية الإنسانية في آخر التحليل تتحول من فلسفة تؤمن بالإنسان إلى ايديولوجيا معادية و منطوية على اهانة متأصلة للكرامة الإنسانية.

Cet article présente une étude critique et analytique du pragmatisme humain ; enprenant William James comme modèleen considérant le pragmatisme comme étant une philosophie pratique; puisqu'elle encourage l'acte et l'évolution ; c'est doncun message pour l'humanité.

L'humanisme croit en la dignité de l'homme Donc le pragmatisme se croise avec l'humanisme ; en considérant l'homme leur objet principal Et but final.

Mais le pragmatisme humain en fin d'analyse Se transforme d'une philosophie qui croit à L'homme ; en une idéologie limité à l'offense radicale de la dignité humaine.

المقدمة:

البراجماتية الأمريكية واحدة من الحركات الفلسفية الهامة التي شهدها القرن العشرين، لما تتضمنه من عناصر تفكير علمي قامت كردة فعل على التيار الميتافيزيقي في أوروبا المتطرفة في الإغراق في عالم التجريد والتأمل، ممثلا في الأنظمة الفلسفية المغلقة في طروحاتها، العقيمة في مناهجها، السلبية وفي موقفها من العالم والحياة والإرادة والإنسان.

وبما أن هذه الطروحات التي صاغتها مختلف المذاهب الفلسفية المادية منها والمثالية والتحليلية، حول الوجود والإنسان أصبحت عاجزة عن استيعاب التطور الذي اجتاح إنسان القرن العشرين بشكل مرن ومستمر ومتسارع وأكثر من ذلك، إذ قامت دعوة البراجماتية من أجل التأسيس العملي لحلول وبدائل واقعية ملموسة لأزمات الإنسان في هذا العصر، ليس عن الإنسان ذاته كما فعلت المذاهب الأخرى، وإنما منطلقة من الإنسان والحياة والواقع العملي المعيش، والتجربة المباشرة، داعية مع وليام جيمس لميلاد فكر فلسفي جديد متواضع، معتدة بالسياق المنهجي لا المذهبي ملحة على أهمية التجربة المعيشة في بلوغ الحقيقة بالمعايير التي تحددها.و مادامت قضية الانسان تحتل مركز الثقل في البراجماتية ، اذن فهي تتقاطع مع المذهب الانساني Humanism وبالتالي :إلى أي مدى تعتبر البراجماتية الجيمسية ، امتدادا للمذهب الانساني؟ هل النزعة الإنسانية المبطنة للبراجماتية الجيمسية* ، نزعة انسانية أصيلة أم هي مجرد مظهر عرضي ينذر بمأزق كارثي في نهاية المطاف ؟

النزعة الإنسانية التاريخية والنظرية:

إن الفلسفات والأفكار ذات النزعة الإنسانية خاصة في الفكر الحديث والفلسفة المعاصرة، تلتقي كلها في فكرة محورية، رغم تعدد الرؤى الفلسفية، وهي أنها تهدف كلها إلى خلاص الإنسان، خلاصا إراديا إنسانيا، مقابل خلاص الكنيسة فهو إلهي قدري، إنه يتوقف على إعادة تنظيم أفكار وإعادة النظر في

معتقدات، إن العقل البشري هو المرشد والهادي للإنسان لمعرفة الحق ، وتشريع القيم، وتقرير مصير هذا الكائن الجليل « الإنسان » ولأن كلمة العقل يجب أن تعلو كلمة أوامر السلطة الكهنوتية الكنيسية، لذلك يجب طاعتها، باعتبار الإنسان أصبح يشكل مركز الثقل في هذا الوجود[1]، وكانت النتيجة تأويلات متعددة ومتضاربة حول فلسفة الذات البشرية، وترتب على ذلك مفاهيم مختلفة للإنسان، باختلاف الاتجاهات الفلسفية وتباين الظروف التاريخية، والأنثروبولوجية المتحكمة في المفهوم، من هنا تعددت معاني ودلالات النزعة الإنسانية من الدلالة على برنامج تعليمي كما هو الشأن بالنسبة لكنفوشيوس وسقراط وكانط، إلى الدلالة على مشروع ثقافي تاريخي عند مفكري عصر النهضة، وفلاسفة الأنوار، تأسس على إشكالية الدفاع عن مشروع الذات البشرية، انطلاقا من إحياء التراث الإنساني

اليوناني والروماني القديم هادفا للاستفادة من تجارب بشرية غنية، وثقافات عميقة صنعها العقل البشري، ثم تطورت إلى فلسفة ،أصبحت تعبر عن المجهود الدائم الذي تبذله البشرية بصبر وتفاؤل، من أجل الرفع من قيمة الإنسان والدفاع عن حقه في التحرر وفي تطوير قدراته ومواهبه[2] ،هذا المعنى اشد حضورا في الفلسفة الوجودية، والبراجماتية بمنظار عام، لأنها استطاعت أن تقدم رؤية عن " الإنسان " كغاية وكمحور وكقيمة في حد ذاته، في هذا الوجود، إلا أن هيدجر في رسالة في النزعة الإنسانية: وجه نقده للنزعة الإنسانية، منطلقا من محاولة التأكيد على ضرورة التمييز بين أشكال النزعة الإنسانية على ضوء ما يلاحظ من اختلاف وتعدد في التصورات عن الإنسان ، فإذا كان المعنى

[1] – هاشم صالح ، مدخل الى التنوير الاوروبي ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت، الطبعة 1، 2005، ص 75 .

[2] – عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر،، دار الطليعة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1992م. ص 191.

المقصود بالنزعة الإنسانية، ذلك المجهود الذي يعمل على تحرير الإنسان، ويمكنه من استرداد كرامته وماهيته الحقة، فمن المعقول أن تختلف النزعات الإنسانية بقدر ما يوجد هناك من تصورات عن حرية الإنسان وعن ماهيته، لكن هيدجر انتهى في آخر تحليله النقدي لتصنيف جميع التصورات العامة عن ماهية الإنسان إلى صنفين: صنف تاريخي و صنف نظري فالنزعة الإنسانية التاريخية مؤسسة على ، مشروع العودة إلى الماضي وإحياء التراث الإنساني اليوناني الروماني القديم، كنموذج لأصالة الإنسان الغربي، وبالتالي يمكن الاقتداء بـه ، بينما نجد النزعة الإنسانية النظرية تعرض عن الماضي، وتنقد الحاضر بهدف التطلع إلى المستقبل ،آملة « أن تحقق فيه ماهية الإنسان باعتبارها مشروعا غير تام أو جاهز، مشروعا لا يتوقف عن التحقق بفضل نضال الإنسان »[1] كما يقول الدكتور عبد الرزاق الداوي، لكن هذا التقسيم يصدق على حركة النزعة الإنسانية بأوروبا، في حين نجد في الولايات المتحدة الأمريكية المفهوم يتخذ شكل الطابع العملي التطبيقي، الموافق لروح المذهب البراجماتي، والمتأثر بطبيعة الثقافة والشخصية الأمريكية، إنه يفيد الانفتاح على الواقع والبدأ في مشروع بناء الذات الإنسانية لتوكيد وجودها، منطلقا من صراع ايجابي هدفه إثبات الوجود بالتفوق وبإعلاء سلطان هذه الذات، في حين يتخذ مفهوم النزعة الإنسانية في أوروبا أشكالا سلبية تعلن بصوت مرتفع رفض سلطة الكنيسة أو الله، والدفاع المستكين ضد كل القوى السالبة لحق الإنسان في الحياة كإنسان، وضد أصناف القهر الاجتماعي، والسياسي، وبهذا استطاع أن يبلور نظريات النزعة الإنسانية التي ظهرت في الفكر الأوروبي ويرقى بها إلى درجة العمل، فهو أخرجها من دائرة المناقشات النظرية، والصراعات الفكرية والإيديولوجية، إلى فضاء التطبيقات الواقعية العملية، ويخضعها للمناهج العلمية.

[1] - المرجع نفسه، ص ص 53 – 54.

ثمة ضمانة منطقية لهذا التوحد في النزعة الإنسانية البراجماتية، ملخصها أن هوية العقل البشري واحدة رغم التغيير الزماني والمكاني، هذه الهوية ما تجعل الجنس البشري واحدا، ومتساويا من حيث الإمكانات الذهنية، والميول الطبيعية مهما كانت صيغ الأبنية الثقافية مختلفة، هذا التوحد ما سنلتمسه في النزعة الإنسانية في فلسفة جيمس. فما هي مظاهره وما هي مجالات تجلي النزعة الإنسانية عند جيمس؟

الفلسفة البراجماتية:

تعد الثقافات الواردة التي حملها العنصر الأبيض للعالم الجديد هي المصدر الأصلي الذي تشكلت منه ثقافة المجتمع الأمريكي إضافة لثقافات المهاجرين الذي اتجهوا لأمريكا من كل حدب ينسلون، وبالتفاعل الحاصل بين المحلي والوافد. من ثقافات وعادات، وحاجات فكرية واجتماعية ، تمليها طبيعة الحياة، تبلورت للآفاق أفكار جديدة معبرة عن الشخصية الأمريكية وأسلوبها في رؤية الحياة وهي ما تعرف "بالبراجماتية ".

البراجماتية مشتقة من اللفظ اليوناني " Pragma " ويعني فعل وعمل ونشاط، وهو تيار مثالي ذاتي في الفلسفة الغربية يرى أن المنفعة العملية للمعارف مصدرا لها ومعيارا رئيسيا لصحتها[1] وهي كمذهب فلسفي تؤكد على ضرورة الاهتمام بالنواحي العملية للمعرفة، فمعاني الأفكار ودلالات القضايا قائمة في التطبيق العملي في استخدامها، والاستفادة منها، وهذا ما يوضحه **وليام جيمس** في مؤلفه " البراجماتية " قائلا: « إن الطريقة البراجماتية هي في الأصل وبصفة أولية طريقة لحسم المنازعات الميتافيزيقية التي لولاها ما كان يمكن أن تنتهي » و قول وليام جيمس أيضا: « إن الطريقة البراجماتية في مثل هذه الحالات هي محاولة تفسير كل فكرة بتتبع واقتفاء أثر نتائجها العملية كلا على

[1] - المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة، توفيق سلوم، دار التقدم موسكو، سنة 1986م، ص86.

حـدا »[1] وهـي مسـألة أوضـحتها عبـارة تشـارلز سـاندرس بيـرس – مؤسـس البراجماتية – باختصار مفيد: « وجود الشيء يعني كونه نافعا »[2] فهذا المذهب يعنى بالنتائج، أكثر من المقدمات والمبادئ، متأثرا بالمنهج العلمي،و**نظريـة التطور الداروينية** وتطور العلوم الطبيعية في القرن العشرين،وتطور الدراسات المنطقية وموقفها النقدي من قضايا الميتافيزيقا، والمذهب المثالي، كل هذه المعطيات ذات أثر عميق في البراجماتية[3] هذا إلى جانب الامتدادات الجذرية لها في التراث الفلسفي الأوروبي، إنها ذات صلة وثيقة بالفلسفة التجريبية الإنجليزية، ، وذات اتصال قوي أيضا بالعقلانية النقدية الكانطية، فالسياق التاريخي للبراجماتية يمت بصلة للفلسفة المثالية الألمانية، لقد أعلن كانط أن الذهن يفرض مبادئه على الطبيعة، والمعرفة عالما منظما لمزيج مضطرب من المعطيات الحسية، هذا الإعلاء من شأن العقل نعثر عليه عند البراجماتية، التي تأثرت أيضا بتصور الفلسفة الفاعلة عند فخته، إلا أنها وقفت موقفا سلبيا تجاه الهيجلية، بيد أن الأساس التجريبي الذي قامت عليه البراجماتية قوي الاقتران المباشر بالفلسفة الإنجليزية، وهي جد متفاعلة مع المذهب التجريبي عند ميل، والمذهب التطوري السبنسري، والتطور الخالق البرغسوني، وفلسفة الحياة وإرادة القوة عند نيتشه، والدراسات السيكولوجية المتمثلة في رد الفعل ضد الميكانيكية في تداعي الأفكار والملكات الذهنية،[4] وبالتالي فالبراجماتية تحوير ذكي لمعطيات وأفكار واعتقادات قديمة، وهي حركة تنبذ المطارحات النظرية،

[1] – وليام جيمس، البراجماتية، ترجمة، محمد علي العريان، دار النهضة العربية القاهرة، سنة 1965، ص ص64،63.

[2] – المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة، توفيق سلوم، ص 86.

[3] – مشهد سعدي العلاف، مقدمة في فلسفة العلم: بناء المفاهيم بين العلم والمنطق، دار عمار – عمان، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى سنة 1991م، ص 129.

[4] – رودولف ميتس، الفلسفة الإنجليزية في مئة عام، ترجمة، فؤاد زكريا، مراجعة زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1967م، ص 18.

وتتصل أشد الاتصال المباشر بواقع الحياة، ووقائعها الحيوية، ونتائجها الملموسة عمليا، وانعكاساتها على الوجود الإنساني.[1]

النزعة الإنسانية في البراجماتية: البراجماتية كفلسفة أمريكية ، تناولت قضايا الفلسفة بطريقة متفردة لم تسبقها إليها فلسفة أخرى، فأهميتها كامنة في طريقة معالجتها وحسمها للقضايا والخلافات والمشكلات الفلسفية وليست قائمة في الحقائق الميتافيزيقية التي تصيغها كمعتقدات، ولهذا تعتبر البراجماتية منهجا أكثر منها نسقا معرفيا في الفلسفة، وقد أوضحها بأسلوب عملي تمثيلي مختصر مفيد بابيني Papini بقوله: « مثل البراجماتيزم بين النظريات المتعددة، كمثل الممشى في نزل يوصل بين جميع حجراته، ففي أحدى الحجرات رجل يكتب كتابا في الإلحاد، وفي غرفة أخرى رجل آخر يسجد لإلهه طالبا منه أن يثبت إيمانه، وفي ثالثة كيماوي يبحث في خصائص بعض المواد بينما في أخرى فيلسوف يبحث في الفلسفة النظرية (Idéalisme) وفي أخرى واحد من اللاادريين يدلل على استحالة المعرفة أصلا، وجميع هؤلاء الناس يستعملون ممشى النزل في الخروج من حجراتهم والدخول إليها وجميعهم من هذه الوجهة يتبعون فلسفة البراجماتيزم وهم بعيدون كل البعد عن النظريات العميقة، فكل منهم يسير في هذه الطريق لقضاء شؤونه الخاصة والعامة »[2] فالممشى أي الممر هو البراجماتية كطريقة في الفلسفة تشكل المعيار الذي تستند إليه مختلف المذاهب والنظريات في تقييم مدى صحتها، أو هو إن شئت نقطة التقاء شتى الاتجاهات والتصورات على اختلاف وتضارب وجهات نظرها.

وعليه فالبراجماتية تفيد ما هو عملي، وأول من استخدم هذا اللفظ الفيلسوف الأمريكي شارلز ساندرس بيرس في مقاله الشهير: « كيف نجعل

---

[1] - رودولف ميتس، الفلسفة الإنجليزية في مئة عام، المرجع نفسه، ص 20.

[2] - يعقوب فام، البراجماتيزم أو مذهب الذرائع، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، سنة 1985 م، ص ص 141 – 142.

أفكارنا واضحة » وفي هذا البحث نجد أن بيرس يقرر أن فكرتنا عن أي شيء إنما هي عبارة عن فكرتنا التي نكونها عن الآثار المترتبة عن ذلك الشيء[1] وبالتالي فما معتقداتنا سوى قواعد للعمل أو السلوك وما تفكيرنا إلا مشروع لسلوكاتنا وأفعالنا، وعليه فالمعيار الذي نستند إليه لرفع اللبس والغموض عن أي موضوع من الموضوعات أو فكرة من الأفكار، هو النظر إلى آثارها العملية[2] هذا التصور عند بيرس كان منطلقا تأسيسيا لمذهب الذرائع عند وليام جيمس والذي أوضح قواعده العملية في مؤلفه " البراجماتية " مبينا أن الطريقة البراجماتية في مثل هذه الحالات هي محاولة تفسير كل فكرة بتتبع اقتفاء أثر نتائجها العملية كلا على حدا ، وبالتالي فهي منهجا فلسفيا يهدف إلى التوضيح وتحديد المشكلات ومحاولة تفسير المعاني وإيضاحها عن طريق تتبع نتائجها أو آثارها الفعلية وهي ليست مذهبا فلسفيا مغلقا و لا موقفا متزمتا وجد للدفاع عن وجهة نظر الفيلسوف، وإنما: « البراجماتية وسطا ومصالحا وموقفا (...) إن البراجماتية تلين وتفك نظرياتها »[3] كما قال وليام جيمس William James.

ولهذا نتساءل: ما هي وظيفة الفلسفة من وجهة نظر براجماتية؟

ولئن كانت مهمة الفلسفة منذ فجر تاريخها ، البحث عن الحقيقة، فالحق لدى جيمس له قيمة نقدية وفي هذا يقول: « إن الحقيقي هو فقط اللائق داخل أسلوب تفكيرنا، "كالصحيح" الذي يكون لائقا داخل أسلوب سلوكنا، وأن اللائق يكون تقريبا أي طراز، ويكون لائقا على المدى الطويل وبصورة إجمالية وبداهة، وذلك لأن ما قد يتوافق بصورة لائقة وكل الخبرة عند النظر، لن يتوافق بالضرورة والخِبَر الأبعد من تلك بصورة تتساوى في إرضائها وتلك ... فالحق

(1) –Encyclopedia Universalis. Volume 13 Physique régionalisme, France, Éditeur A. Paris Première publication, Juillet 1972. P 441.

(2) – زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، الجزء الأول، دار مصر للطباعة، (دون تاريخ) ص 30.

(3) – وليام جيمس، البراجماتية، ترجمة، محمد علي العريان، ص 104.

هو نوع واحد من أنواع الخِبَر وليس كما يفترضونه عادة، مقولة مميزة من الخير، ومتناسقة معه، فالحقيقي هو اسم لأي شيء يبرهن على ذاته بأنه خير في طريق الاعتقاد ».[1]

فالحق عمل وممارسة ، تترجم أفكارنا ورغباتنا والحقيقة هي تحقيق واثبات، لهذا فالذرائعية فلسفة في الحياة تولي ظهرها للمناقشات النظرية، والحلول اللفظية، وهي بالفعل حريصة كل الحرص عما تجنيه التجارب العلمية والحركات السلوكية، من ثمار، فالأعمال ونتائجها وآثارها الملموسة على أرض الواقع ما يبرهن على الحقيقي في كل قضية لا الأقوال[2]. وبهذا تصبح البراجماتية ليست معرفة في حد ذاتها ولا معتقدات جاهزة نهائية، ولا حتى نظريات ومبادئ ثابتة بل هي منهجا أو طريقة للبحث عن الحقيقة ومعرفة الحق من الباطل، ووسيلة للبحث وحل المشكلات التي تصادفنا منهجا لتغيير الحقائق الراهنة[3]، ذلك أن وسيلة التأثير في الواقع، فهي العمل لا النظر، فالنتائج المحققة والحلول الملموسة ما يرضي رغبة الإنسان في التغيير ويجلب له النجاح، فالبراجماتية إذن: تراعي الطبيعة البشرية، وميل الإنسان الفطري للتقدم والتغيير والتطور والنجاح، وهذا راجع لاستناد البراجماتية – بشكل عام، وبراجماتية جيمس على الخصوص – لأسس سيكولوجية، وتوجهها لوجهة واقعية مشبعة بالروح العلمي، وما دامت تحترم مبادئ الطبيعة الإنسانية إذن، فهذا دليل نزعة إنسانية في الحركة البراجماتية، وبالتالي السؤال المطروح:

ما هي مضامين هذه النزعة الإنسانية البراجماتية؟

---

(1) – المصدر نفسه، ص ص 353 – 354.

(2) – William James, Le Pragmatisme, traduit par E. Le Brun, introduction Henri Bergson, Paris, Flammarion, 1968 P 52.

(3) – Ibid. P 53.

الحركة أو التيار أو المنهج أو الفلسفة البراجماتية، وجدت رواجا في أوساط الفئات المثقفة الأمريكية والإنجليزية، بفضل أعمال جيمس، ومن بين الألوان التي عرفت بها هذه الفلسفة: البراجماتية Pragmatisme والأداتية Instrumentalisme والتي روج لها جون ديوي، والعملياتية Opérationalisme التي روج لها بريجمان، والإنسانية Humanisme التي روج لها شيلر، وقد طرح البراجماتيون شعار قرن الفلسفة بالحياة، وفهم الفلسفة على أنها أسلوب لحل المشكلات البشرية، والنظر إلى الإنسان باعتباره كائنا فعالا، يحور الواقع وفقا لأهدافه ورغباته ومتطلباته[1] وهذا الجذر المشترك في الإيمان بقوى الإنسان وقدراته نقطة التقاء لنزعة إنسانية في الفلسفة البراجماتية: فما هي ملامح النزعة الإنسانية البراجماتية؟ وما هي القيم التي تمثلها؟ وما الذي يسعى البراجماتيون لمساندته في الإنسان؟

لقد شهد المذهب الإنساني ، تطورات مستمرة ، خاصة في الأزمنة الحديثة، نظرا لاجتماع عدة عوامل ، حثت على ظهوره بشكل قوي منها: ظهور الثورة الصناعية والسعي وراء النهم لجمع المال، والثروات، وتكديس الممتلكات المادية، إضافة لما شهده حقل البحوث العلمية من اختراعات مادية، ساهمت بشكل غير مباشر في ترويج الفلسفة الآلية، وتقليص أهمية الأطر الروحية والفكرية للإنسان، كما أثارت الشك في أهمية الأبحاث الفلسفية، إضافة لانتشار الشيوعية ورواج الفكر المادي والإلحاد، والسعي للمحافظة على الذات بدافع من التمسك بالهوية، ورد العدوان الذي أثارته الحروب المنتشرة عبر بقاع شتى من العالم، لهذه الأسباب تفاعلت مجتمعة، لتوجيه الاهتمام في منحى الممارسة العملية[2] والبحث عن الحلول الملموسة المرضية، وهذه

[1] - المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة، توفيق سلوم، ص ص 87 – 88 .

[2] - رالف بارتون بيري، إنسانية الإنسان، ترجمة، سلمى الخضراء الجيوشي، مؤسسة دار المعارف، بيروت – لبنان، سنة 1989 م، ص 11.

الوجهة البراجماتية الواقعية العملية، تعج بروح النزعة الإنسانية، التي هي في الأصل احتجاجا على هذه الاتجاهات، إذ نجد أن المذهب الإنساني كرسالة أو حركة فكرية نشأت في أوروبا (في القرن الثاني عشر) يجعل الإنسان مركز العالم، طاردا شبح المدرسية، ساعيا لتقدير الذات الإنسانية، انطلاقا من معرفة الذات، معترفا بقيمته كغاية في ذاته، كرأسمال، كشرط أولي ونهائي لكل محاولة فلسفية أو حركة فكرية[1] وباعتبار الفلسفة البراجماتية ترفض المناقشات النظرية، والحلول الشكلية وتمقت التجريد، الذي لطالما ساد بين المثالية والتجريبية التقليدية، لذلك أرادت أن تكون نموذجا لجواب فلسفي بدلا من أن تكون نسقا فلسفيا مغلقا ، والحق البراجماتية، عند جيمس جواب رجل على همومه وانشغالاته، وتطلعاته وإرادته، في حين نجدها عند ديوي ، جوابا عن حاجات عامة لمجتمع يتطلع للتقدم والرخاء، هذه الوجهة حتمت على الحركة البراجماتية أن تقدم نموذج الفلسفة التي تأبه بانشغالات الإنسان، ومحنه ومطامحه وحاجاته وأفكاره في واقع الحياة المألوفة المباشرة، وما دامت كذلك فهي إذن تمت بصلة عميقة للمذهب الإنساني، في جعلهما الإنسان هدفا ومثالا[2] ومعنى ذلك أن النزعة الإنسانية في البراجماتية تنطلق من تحديد مثل أعلى، هو النظر للإنسان كغاية في ذاته، يستحق التقدير، وهي فكرة تقترب من الاتجاهات الفكرية التي قامت كردة فعل ضد عقيدة القرون الوسطى، مجسدة في المذهب الإنساني مقابل اللاهوت المسيحي، هذا الإعلان للإعلاء من شأن الذات الإنسانية، واحترام الإنسان يحتم التساؤل: ما هي جذور هذه المبادئ أو وجهات النظر ؟ لا يعنينا السياق التاريخي أو التراكم المعرفي، هاهنا، بقدر ما يهمنا البحث عن الصلة الجذرية لهذه النزعة بالموضوع في حد ذاته، بحثنا

[1] - بيار دوكاسيه، الفلسفات الكبرى، ترجمة، جورج يونس، منشورات عويدات – بيروت – باريس الطبعة الثالثة، سنة 1983 م، ص 91.

[2] - رالف بارتون بيري، إنسانية الإنسان، ترجمة، سلمى الخضراء الجيوشي، ص 12.

تحليليا داخليا: إنه يستند للعقيدة التي تؤمن بأن الإنسان يمتلك قدرة على الحرية، والتطور، والتغيير، والتأثير في الأشياء والعالم من حوله مقابل التأثير في ذاته، وبهذا تصبح مهمة الفلسفة محاولة فهم الإنسان على حقيقته كما هو في الواقع، كإنسان طبيعي، وكل ما يحتاجه هو من الفلسفة تفهم أفضل وأعدل لمعناه الجوهري[1] مما يبين لنا اتفاق الفلسفة البراجماتية مع اتجاهات الناس في العالم الجديد، تلك الاتجاهات العلمية التي يتميز بها الأمريكيون خاصة منهم رجال الأعمال،والذين يهمهم في المقام الأول، الربح أي تحقيق النجاح في الحياة، ودون ممارسة عملية أي خبرة وتجربة، فلا يمكن توفير هذه الفائدة أو المنفعة المقصودة، من هنا ظهر مفهوم جديد للتجربة في أمريكا، إن معناها يراد به اقتران الفكرة بالفعل، لتأييد سلوك معين، تقاس قيمتها بنجاح تلك الفكرة فيما تتركه من آثار عملية، ونتائج ملموسة في دنيا الواقع وحياة الإنسان العملية، فالتجربة عند الفيزيائي تجرى داخل المخبر أما بالنسبة للفيلسوف البراجماتي فيراد بها النشاط العملي الذي يترجم الفكرة ويعبر عنها تعبيرا واقعيا عن نجاحها أو فشلها، ولهذا معنى التجربة عند البراجماتيين معنى عملي بسيط ومباشر، بعيد عن الألغاز الفلسفية وغموض الميتافيزيقا، إنه يختلج في مفاهيم الإنسان العادي الذي يتطلع في كل عمل ينجزه أو فعل يقوم به للنتائج الملموسة، فالأغراض العملية هي معيار صدق أفكارنا حسب وجهة نظر البراجماتيين وكما قال مؤسس البراجماتية تشارلز بيرس « إننا لا نعرف على وجه التحقيق ما هي الكهرباء في حد ذاتها، أي أننا لا نملك ماهية عقلية للكهرباء، وكل معرفتنا بها محصورة فيما تؤديه لنا الكهرباء أو ما تحققه من أغراض عملية »[2] فمعنى الفكرة يتحدد في الآثار العملية الملتمسة في تجاربنا اليومية، وقد توسع وليام

[1] - المرجع نفسه، ص 13.

[2] - يحي هويدي، قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، مصر 1993. ص ص 133-134 .

جيمس في هذه الفكرة، وطور الفلسفة البراجماتية مبينا أن الحقيقة ليست إلا ما يقودنا إلى النجاح في الحياة، وقال إن المعتقدات الصحيحة هي وحدها التي تنتهي بنا إلى تحقيق أغراضنا الفعلية[1] فليست هناك حقائق مطلقة، إننا نفكر ونجهد أنفسنا لنجد وسائل وأدوات للتكيف مع واقع الحياة، المتميزة بالتعدد والتنوع والتغير والكثرة، لا الثبات والوحدة، فالكون كما يبدو لـ "جيمس" يشمل موجودات مستقلة وحوادث منفصل بعضها على بعض، ومتغيرة باطراد، وهذه مشكلة: الوحدة والتعدد، إن المذاهب الإطلاقية، المثالية والعقلية، مذاهب واحدية، تميل لتأكيد الكليات والإيمان بمبدأ مطلق سابق في الوجود، في حين المذاهب التجريبية الكلاسيكية، فهي تميل لتأكيد الأجزاء، وتؤمن بالتعدد[2] ذلك أن الكائن البشري مفطور على التفكير في الذات، والميل لتحقيق حاجاتها وإرضاء رغباتها إرضاء عمليا في إطار الارتباط بواقع متعدد يشهد فيض من الممكنات ردا في ظل عالم متعدد متضارب الوقائع والأحداث، مما يحتم التسليم بالكثرة ورفض الإيمان بالوحدة، لكن لماذا عارض جيمس الوحدة وسلم بالكثرة؟ ذلك أنه كما يقول جيمس: « من المعتقد أن ليس ثمة إبداع حقيقي في العالم، فالأشياء الجديدة التي تظهر، إما أن تكون قد تشكلت من قبل تشكلا أبديا في المطلق، أو هي نتائج للأشياء الأولى – الذرات أو المونـاد – دخلت في امتزاجات جديدة بيد أن مسألة الوجود مسألة غامضة جدا على أية حال، بحيث أنه سواء انبثقت الأشياء في الوجود دفعة واحدة أو جاءت قطعة قطعة، وكان لها أعمار مختلفة (بحيث يمكن للإبداعات المختلفة أن تفيض في عالمنا كل وقت) فمن الممكن ترك هذا السؤال جانبا، وإن لم يكن هنالك شك في أننا لو توخينا الاقتصاد في التفكير، لافترضنا أن كل الأشياء قديمة على حد

---

[1] – المرجع نفسه، ص 135.

[2] – William James, Philosophie de l'expérience, traduit par Le Brun et M. Paris. Ernest Flammarion, Editeur, Paris 1914, P 24.

سواء، ولن تفيض أية إبداعات »[1] لقد عارض جيمس المذاهب المثالية والإطلاقية لأنها تنأى بالإنسان عن حاجات الحياة، لإغراقها في التجريد يوضح هذه الفكرة جيمس بقوله: « المذهب التصوري يمكن أن يسمى التغير والنمو، ولكنه لا يستطيع أن يترجمهما في حدود من عنده، ويضطر أن يناقض ذلك الإحساس الذي لا مهرب منه، أعني الإحساس بالحياة عندنا بأن ينكر أن الواقع ينمو ».[2]

كما وجه هجومه العنيف ضد التفكير المنهجي لأنه نمط للآلية المفروضة على العقل البشري، لذلك وجب الصد عنه، ولأن البحث الجدي في المشكلات الأساسية للإنسان في واقع الحياة يتطلب حرية فكر، ومرونة ودينامية، تخرج عن إطار شكلية الفكر المنهجي، والمعتقدات والأفكار الثابتة المفروضة لهذا فـ « إن فلسفة جيمس فلسفة فسيفسائية، فلسفة عدم التناسق، فلسفة أحداث اختيارية، متخبطة، غير مستمرة، زاحفة، متشابكة، ملوثة، مؤلفة، جزئية ، نحن هنا بكل وضوح أمام الفيلسوف التجريبي الذي يشدنا إلى الوراء، من العقلية المجردة إلى العيني، أيا كان الثمن »[3] على حد تعبير جون لويس، وفي هذا الصدد يقول محمود فهمي زيدان ما نصه: « أن بحث جيمس في الوحدة والكثرة أدى به إلى البحث في الوقائع، والحوادث، والتجارب، وأدى به إلى نتيجة افترض أن العالم تعددي متنوع غير متناسق، لكنه يسعى نحو الوحدة والتنافع، هذه النظرية التعددية أصبحت أساسا لأبحاث جيمس في البراجماتية

---

[1]- وليام جيمس، بعض مشكلات الفلسفة، ترجمة، محمد فتحي الشنيطي، مراجعة زكي نجيب محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سنة 1962 م، ص 114.

[2] – المصدر نفسه، ص 129.

[3] – جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة، أنور عبد الملك، مكتبة دار الحقيقة، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، سنة 1978 م، ص ص 190 – 191.

خاصة في موضوعي الدين والأخلاق »[1] هذه المعرضة للمذهبية الفلسفية نابعة من صميم المنهج البراجماتي، وتطبيقاته، ورفضه للتزمت الفلسفي، ومقته روح الخلاف والاختلاف لأجل الصراعات الجدلية لا أكثر، لذلك فالبراجماتية تبتعد عن المناقشات النظرية، وتدير ظهرها للجدل الفلسفي الفارغ لأنه شرننة لفظية، ساعية لتوفير الجهد والوقت لحل المشكلات الحقيقية للإنسان في واقع الحياة، حلا عمليا، معتقدة اعتقادا راسخا أنه لمثل هذه القضايا الجديرة بالاهتمام والبحث قامت الفلسفة، مما تقدم لاحظنا أن البراجماتية تؤمن " بالعمل " كمبدأ، وتعنى بآثاره ونتائجه، وبالتالي فمعيار الحقيقة، هو العمل المنتج لا الحكم العقلي، وما دام العمل مبدأ مطلقا إذن وجب أن يكون حر بكل ما تحمله دلالة " العمل " من معنى سواء كان فعلا عقليا، أو خلقيا وحتى يكون سلوك الإنسان وأفعاله حرة ولتحقيق ذلك يلزم أن يكون العالم مرن حتى يستطيع التأثير فيه، وتشكيله حسب إرادته، وهذا يتضمن أن تصورات الإنسان وأفكاره ونظرياته ليست إلا وسائل أو أدوات بواسطتها يمارس تأثيره في العالم والأشياء[2] وفي هذا يقول وليام جيمس: « إن كل مفاهيمنا هي ما يسميه الألمان Denk mittel (طريقة التفكير أو التذكر) أي الوسائل والطرق التي بواسطتها تعالج الحقائق بتفكيرها، والخبرة كخبرة فحسب لا تأتي معنونة وعليها بطاقتها، وإنما يتعين علينا أولا أن نكتشف ما هي»[3] إذن الخبرة لا تقدم لنا حقائق جاهزة ونهائية وإنما محاولات متنوعة من السلوكات والمهارات الفعلية التي بواسطتها نختبر قيمة ومصداقية مهارتنا العقلية، وبهذا تصبح أفكارنا وخيالاتنا مطلق وسائل

[1]- محمود فهمي زيدان، وليام جيمس، نوابغ الفكر الغربي، العدد 10، دار المعارف، القاهرة، ص ص 13 – 16.

[2] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت – لبنان (دون تاريخ). ص ص 417 - 418.

[3] - وليام جيمس، البراجماتية، ترجمة، محمد علي العريان، مراجعة زكي نجيب محمود، ص 205.

وأدوات للعمل لا أكثر، فالتجربة إذن هي الأساس لمعرفة الصواب والاهتداء للحق، فالمذهب البراجماتي باعتباره ينظر للتجربة بأنها متعددة، متنوعة، ذلك ما فرضته طبيعة العالم المبتكر ومما يستوجب معارضة الأحادية والجبرية، الأحادية التي ألبست حلة حديدية لنظام العالم المفروض، وجعلته ثابتا ساكنا منذ الأزل، والجبرية التي أصبغت على السلوك البشري آلية عمياء، وكلتاهما صورت الإنسان كائنا يوجد في عالم فرض عليه قوانينه الأبدية، فهو يقف حائرا تائها عاجزا، وهي مفاهيم وتصورات متشائمة لا ترضي البراجماتي، ولهذا فالبراجماتية فلسفة متفائلة، ذات نظرة واسعة للكون متجددة للحياة، متدفقة بكل العناصر الحيوية، باعتبارها تدع مستقبل العالم مفتوحا ، يحتمل إمكانيات عدة يتوقف تحقيقها على فعل الكائنات التي تقرر مصيره،[1] فهي تفتح آفاقا مستقبلية أمام الإنسان، وتسانده وكلها ثقة بعبقريته الكامنة وقدراته وإمكان مبادراته نحو تغيير العالم وتحوير وجوده بالنمطية التي تروقه، وبفضل استخدام مناهج علمية، لضمان نتائج مرضية وأكيدة، في « مجال السيطرة العملية على الطبيعة التي وضعته في أيدينا الطرق العلمية للتفكير يفوق إلى حد كبير جدا مجال السيطرة القديمة المبنية على البداهة. إن معدل زيادتها يتعاجل تسارعا لدرجة لا تمكن أي إنسان من أن يلاحقه، بل إن المرء ليخشى أن كينونة الإنسان قد تسحقها قواه ذاتها، وإن طبيعته الثابتة المحددة ككائن حي قد ثبت أنها غير كافية للصمود تحت عبء مجاهدة الأعمال والوظائف الهائلة الآخذة في الازدياد على نحو موصول جبار والتي تكاد تكون وظائف خلاقة إلهية، سوف يتسنى لعقله أن يديرها ويستخدمها أكثر وأكثر »[2] كما قرر جيمس، إننا نعيش في عالم يشهد فيضا من الظواهر والموجودات المتنوعة والحوادث المتضاربة المتغيرة، التي يواجهها الإنسان، والتبدلات الشاقة المضنية، نعيش كونا يشهد تيارا متدفقا من

[1] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 418.

[2] - وليام جيمس، البراجماتية، ترجمة، محمد علي العريان، ص 223.

التحولات التي تكاد تعجز الإنسان، إلا أنه بفضل ملكاته، واستقطاب قدراته العقلية، واستغلال ذكائه وتوظيف خيالاته، يمكنه مواجهتها و إخضاعها لمصلحته.

وهي فكرة نعثر عليها عند جون ديوي – الفيلسوف البراجماتي والمربي الذي شغل مدرس بجامعة كولومبيا – حيث يعتبر أزمة الفلسفة، كامنة في طرح مشكلات كاذبة[1]، ناتجة عن اعتبار المعرفة تأملا نظريا غير ذي موضوع حيوي جدي مفيد، لهذا عارض عبث المذاهب السابقة المثالية والتجريبية الكلاسيكية – بمذهب الأدائي مؤكدا أن غاية الفكر لا تكمن في الفكر في حد ذاته لأن الفكر طور من أطوار الحياة، والحاجة لاستخدام الأدوات العقلية تكون متى نشب صراع بين الدوافع الحيوية، الباعثة على محاولة إيجاد مخرج، إن الدافع لحفظ الحياة مثلا ،عند التهديد يؤدي لطرح مشكلة بدورها تحث على إمكان إيجاد حلول لأجل التكيف مع الواقع والانسجام مع أوضاع الحياة، على أن مضامين هذا التكيف متوقفة عل استقطاب فاعليات الإنسان الذهنية والعملية المتجهة صوب المستقبل، وبالتالي فالفاعليات الإنسانية ليست مفروضة من الخارج، وإنما هي فاعليات أصلية نابعة من ذاته، وقدراته وذكائه، مجهوداته الموجهة لإيجاد عالم أكثر ملائمة وانسجام و رضى[2] وهذا خلاف ما ذهب إله سبنسر في الاعتقاد بأن الذهن البشري يستلهم فاعلياته من الخارج، فمذهب التطور يضع القوة في الطبيعة الخارجية ويجعل الذات الإنسانية تابعة لها ومنفعلة بها.[3]

[1]– أميل برهييه، تاريخ الفلسفة الحديثة، الجزء السابع، ترجمة، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1987 م، ص 164.

[2] – أميل برهييه، تاريخ الفلسفة الحديثة، الجزء السابع، ترجمة، جورج طرابيشي، ص 165.

[3] – يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 388.

إن هذه العقيدة الإنسانية الراسخة في المذهب البراجماتي واعتقاداته مرآة عاكسة لروح المذهب الإنساني، باعتبارها تجليا واضحا لمعانيه في جعل الإنسان هو الرسالة الحقيقية للحركة البراجماتية والهدف من وراء كل محاولة خاصة في المجال الذي توسعت فيه مع جيمس.

النزعة الإنسانية عند جيمس:

بعد التطرق لدلالات المذهب الإنساني، وتطورها تاريخيا عبر مراحل الفكر الإنساني، وامتداداتها للحركة البراجماتية، نظرا لاهتماماتها بالإنسان، هذا التوجه الذي يتغلغل بقوة في فكر وفلسفة " وليام جيمس "، والذي يظهر بوضوح كانطباع عام أو نقطة التقاء في جميع كتاباته وأفكاره، ومحاضراته، فالقارئ لـ" وليام جيمس " يدرك هذا الرافد الأصلي، كهدف موحد لتصوراته، كفيلسوف وكعالم نفس، والمتمثل في الانكباب على انشغاله بقضايا « الإنسان » والتي أخذت جانبا أوسع من فكره، الأمر الذي حمل تلميذ " جيمس " شيلر على استعاضة تسمية البراجماتية، بالمذهب الإنساني، والذي ترجم لنا بصدق الملامح العامة، لفكر وليام جيمس[1].

لعل أعظم إسهام لـ" جيمس " وأبرز مظهر يجلي نزعته الإنسانية يلخصه تساؤله الفلسفي الأساسي: كيف يمكن للإنسان أن يختار أفضل الأفكار وأصلحها في عالم تكثر فيه الرؤى والنظريات المنافسة؟ وبعبارة أخرى ما هو معيار الصدق الذي ينبغي على الإنسان العمل به، لاختيار تلك الأفكار؟[2] لهذا

---

[1]- William James, La volante de croire, Traduit par Löys Moulin. Ernest Flammarion, Editeur, Paris, 1962, p1.

[2] - صلاح محمود عثمان، الداروينية والإنسان، نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة 2001 م، ص128.

فالنزعة الإنسانية عند " جيمس " ترتبط بنظريته في الصدق أو الحقيقة، وإرادة الاعتقاد أو كما سماها هو ـ فيما بعد ـ حق الإنسان في أن يؤمن ،[1] .

وفي مقاله (طاقات الناس) اوضح جيمس قوة العقل في مقاومة التعب الجسماني والتغلب على العوائق المادية (...) كما كان مهتما بعلم النفس التطبيقي وخصوصا بالتطبيقات الخلقية والتربوية. وفي كل تلك المقالات وضع نصب كيفية تكوين الرجل الكامل، والتمس التفسيرات العرضية عن طريق إدخال الجسم والبيئة في الاعتبار، لقد كانت كتاباته ومخارج كلماته، وتعابيره نابضة بمعاني الروح الإنسانية ، إذ كان شديد الميل، قوي الحرص على الإنكباب بحثا عن الطرق والوسائل التي يستطيع أن يفيد بها جمهرة المعلمين وهذا يتهم في عملهم التربوي سواء السبيل، وقد برهن في كتابه « أحاديث للمعلمين والمتعلمين » عن جدارته كعالم نفس تربوي اضطلع بالمهمة التربوية، وآمن بقداسة رسالة المعلم، « ولعل أعظم حقيقة تربوية قام بها وليام جيمس في كل حياته عندما أكد أهمية السلوك بالقياس إلى الوعي، في عملية التعليم هي عبارته المأثورة في جامعة هارفارد عندما قال: « إن العقل ما يؤدّى »،[2] فالعقل البشري جهاز معقد من الوظائف والعمليات الذهنية المركبة، الديناميكية، والوعي عملية فاعلة مؤثرة، خلاقة تفوق الخبرة التي تزودنا بها التجربة، ولكن عمق تجاربنا وتنوعها غير متوقف على الخبرة في حد ذاتها، بقدر ما تتحكم فيه إرادتنا في الاكتساب، وفي المعرفة، والمعرفة بدورها ليست غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة أو ذريعة لطريقة تفكيرنا وأسلوبنا في حل المشكلات، من أجل

[1] - جون ديوي، نمو البراجماتية الأمريكية، في كتاب فلسفة القرن العشرين نشرها داجوبرت رونز، ترجمة عثمان نوية مراجعة الدكتور زكي نجيب محمود، سلسلة الألف كتاب الأولى، العدد464، الإدارة العامة للثقافة القاهرة، (دون تاريخ) ص239.

[2] - وليام جيمس، أحاديث للمعلمين والمتعلمين في علم النفس، ترجمة الدكتور: محمد علي العريان، الناشر عالم الكتب – القاهرة، سنة 1961م ترجمة، محمد علي العريان، ص38.

التوافق البيئي، والكسب والنجاح، لهذا يعتبر جيمس واضع أسس التربية الحديثة، التي طورها " جون ديوي "، و" كارباتريك " فيما بعد.

لكن ما هي القضية الأساسية التي أثارها جيمس في التربية؟ وما هو القصد أو النية من وراء طرحها؟

من الغريب أن يجد القارئ لجيمس أن القضايا والمشكلات التربوية التي أثارها هي نفسها التي نتعرض لها اليوم، والتي لا زالت تنشد حلولا إصلاحية في أنحاء شتى من العالم، بالرغم من اختلاف الزمان، والثقافات المحلية للدول والمجتمعات البشرية، إلا أن جوهرها واحد من ذلك معضلة التربية اليوم وهدفها في تنظيم المدارس للاضطلاع بمهمة إعانة الطفل « على أن ينمو نموا سويا بسبيل طبيعي للنمو في عالم سريع التطور متلاحق التغيير ».[1] على حد تعبير جيمس، وهنا نتساءل: ماهو هذا السبيل الطبيعي للتربية؟ وماهي غاية جيمس من طرحه؟ بماذا نميز بين عمليتي تعلم، إحداهما قائمة على أسس شاذة، ومنطلقات غير إنسانية، والأخرى مؤسسة على قاعدة طبيعية إنسانية، تتفق والطبيعة البشرية، ولا تناقض سنن الحياة؟

لقد عالج جيمس المشكلة مشكلة انحراف التربية عن جادة الصواب، علاجا قائما على معايير عملية وواقعية، وبنظرة فاحصة، أوضح أن سبب انعراج التربية، وافلاس التعليم راجع للمنطلقات النظرية، أو فلسفة التربية، التي تنظر للمعلم والمتعلم مجرد وسيلة أو أداة لبلوغ غايات عامة سياسية واجتماعية، تحددها السياسة التربوية لهذا دعا المعلم أن يكون **إنسانا حيويا**، حر التفكير، مستقل الشخصية والإرادة، نام متطور، متبصر ومتفتح لأنه كقائد يلزم أن يكون قدوة، لتأليف جيل صالح، وعقول صحيحة، وذوات قوية.[2] وهذا التصور

---

[1] - وليام جيمس، أحاديث للمعلمين والمتعلمين في علم النفس، ترجمة، محمد علي العريان، ص 40.

[2] - المصدر نفسه، ص 41.

التربوي يذكرنا بالنموذج الذي استند إليه وهو " سقراط "، معلم شباب أثينا، وفيلسوف الفضيلة، وقديس التربية، الذي قدم نفسه قربانا للحق والخير، إن تفكير جيمس في المجال التربوي ينطوي على مثل أعلى هو « **ضرورة احترام الإنسان كغاية في ذاته** » تلك القاعدة الكانطية التي تسربلت من ورائها نزعة جيمس الإنسانية الداعية لـ:

أ) اعتبار المعلم، والمتعلم – طرفي العملية التربوية التعليمية – غاية في حد ذاتها.

ب) الإيمان بأهمية " القدوة " الحسنة كأحد الوسائل التي تسرع بعملية نشر الرسالة التربوية، وتغلغلها في الفرد والمجتمع. ولهذا نجده يحذر المعلمين من العبودية العمياء، والتبعية الآلية لما يملي عليهم في مهنهم، وحتى من قبل بعض الدراسات النفسية السابقة ذات المفاهيم المغلوطة، ذلك أن « المجتمع الذي يحول معلميه إلى كلاب حراسة ينشئ جيلا لا يزيد عن قطيع من الأغنام » على حد تعبير وليام جيمس .[1]

إن النتيجة العملية من وراء هذه الرسالة الاحترام الصادق للشخصية البشرية الذي هو انبثاق لروح غاية في العمق، والإنسانية على ما يبدو .

إن الإصلاحات التربوية التي تجري في أنحاء شتى من العلم اليوم، في ظل العولمة، أو فرض النظام العالمي الجديد، أو الأمركة كما يحلو للبعض تسميتها، ذكرت. هذه الإصلاحات الجذرية والعميقة القائمة على فكرة « التربية التقدمية » والهادفة لتنمية ذكاء المتعلم، وتحفيزه على النشاط والتفكير، ليصبح فردا نافعا ناجحا مستقبليا، هذه الحركة الإصلاحية التربوية، التي انطلق صيتها من الولايات المتحدة الأمريكية، تمت بصلة جذرية لنظريات ومفاهيم وليام جيمس في مجال علم النفس التربوي، إنه لا يهتم بالإصلاحات النفسية

[1] – وليام جيمس، أحاديث للمعلمين والمتعلمين في علم النفس، ترجمة، محمد علي العريان، ص 42.

والشكلية المتعلقة بالموضوع أي موضوع التربية، ويوجه اهتماماته للمضامين الجوهرية، أولها: الإنسان (المتعلم) الذي حظي في فلسفته التربوية باحتلال مركز الثقل لدرجة وجه جيمس للمعلمين دعوة يقول فيها « لذلك أناشدكم أن تترققوا بالعقول التي لا تحصل أعلى درجات عالية في الامتحانات – ترفقوا بها ترفقا حانيا بصيرا – فقد تتفتق هذه العقول في امتحان الحياة الطويل عن قدرات أعظم ومهارات أقدر، وانفعالات أعمق، وأهداف أقوم سبيلا وأجدر بالنفع والإفادة من تلك العقول الذرية القادرة على الاسترجاع الفوري ».[1]

إنها عبارة عاكسة لحكمة رجل كل ما يمكن أن يقال عنه بإيجاز: أنه مربي الإنسانية من طراز كونفوشيوس، وبودا وسقراط وغيرهم.

وهذه الحكمة البالغة، ما ألهمت انتقاله الفكري من دائرة علم النفس إلى فضاء الفلسفة، فمن هو جيمس الفيلسوف؟ وبماذا يطالعنا مذهبه البراجماتي؟ وما هي إلماعات النزعة الإنسانية فيه؟

ومهما تكن وجهة هذه المذاهب، وتناقضاتها ومهما تكن هوة الاختلاف والصراع القائمة بينهما، فإنها تلتقي في نقطة مشتركة، وهي التقليل من قيمة الإنسان، والاستخفاف بأهمية الحياة، فالمذاهب المثالية تتجه لتعظيم المطلق وتصغير الإنسان، والمذاهب المادية ألهت الطبيعة وقزمت الإنسان، فموقف جيمس من هذه القضية موقفا معتدلا، قائم على أسس علمية، فهو ينطلق من الإقرار بوجود العالم قبل وجود الإنسان، فوجود الطبيعة وإحكام نظامها، وسن قوانينها، ليس وقفا على إرادة الإنسان، فقد وجد العالم قبل وجود الإنسان، وهو مستمر في الوجود إلى حين بعده وبالتالي فليس وجود العالم بنظامه متوقف على قدراته، إن كل ما يسعى إليه الإنسان هو معرفة أسرار هذا الكون واكتشاف قوانينه وتسخيرها،[2] فالبراجماتية عند جيمس تضع الإنسان محور اهتماماتها

[1] – وليام جيمس، أحاديث للمعلمين والمتعلمين في علم النفس، ص 191.

[2] – رالف بارتون بيري، إنسانية الإنسان، ترجمة، سلمى الخضراء الجيوشي، ص25.

الفلسفية، ومدار قضاياها، وأبحاثها، محاولة تغيير وجهة النظر من الاهتمام بالعالم المادي والكون إلى الاهتمام بالإنسان، ومشكلاته، وهي في هذه النقطة تلتقي مع الفلسفات الوجودية، في اهتمامها الدؤوب بالإنسان، باعتباره محور الوجود والكون ككل، إذن لنا أن نتساءل:

اذا كانت هذه بعض ملامح هذه النزعة الإنسانية في فلسفة جيمس؟ فما هي الأغراض التي ينشدها من وراء تمثله المذهب الإنساني في أفكاره؟

من هو " إنسان " جيمس؟ هل هو إنسان طبيعي مألوف أم إنسان فوق طبيعي خارق على نموذج إنسان " نيتشه " السوبرمان؟ و ما هي آثار هذه النزعة الإنسانية في الفلسفة البراجماتية وامتداداتها الواقعية الراهنة ؟ .

مناقشة و نقد.

اتخذ مسار النزعة الإنسانية في أوروبا مظهرا سلبيا من حيث المنطلقات، بوصفه قام كرد فعل على قوى ضاغطة استعبادية، عكس نظيره في الولايات المتحدة، أين نلاحظ أن دلالة المذهب الإنساني في البراجماتية مشبعة بالمعاني الإيجابية، مفعمة بروح التفاؤل وحب الحياة، بفعل ما تسمح به الظروف القانونية للبلد من فضاء واسع للحرية، واحترام الإنسان مما ساهم حتما في بزوغ ونمو المذهب الإنساني كروح هي السر في قيام البراجماتية عند جيمس، و هذا يدفعنا لطرح السؤال:

من هو الإنسان عند جيمس؟

سؤال يحتم الطرح في سياق العرض المنطقي لنزعة جيمس الإنسانية، من هو الإنسان؟ ما هي مواصفات الذات البشرية التي يخاطبها الفيلسوف جيمس ويريد أن يرقى بها من مستوى إنسان عامي، بسيط إلى مستوى إنسان قادر على جعل أحلامه وطموحاته حقائق واقعية معيشة ،إنّ هذا السؤال من نمط الإستفهامات و المشروعات التي يطرحها **خبير الإنماء البشري**، فالسؤال يتضمن دلالة عميقة، ومعنى جليل، فهو يفيد البحث عن مثل أعلى يمكن للإنسان أن

يستند إليه، حتى يجعل من نفسه ذاتا قادرة على استيعاب الخطاب الجيمسي، ذاتا قادرة على النضال و توكيد الوجود في عالم رحب نيتشوي محفوف بالمخاطر [1].

يختلف سؤال جيمس الضمني: من الإنسان كما أريده؟ عن سؤال العقلاني من هو الإنسان؟ ماهية الإنسان، حقيقته وجوهره الذي يجعله يتميز عن باقي الأنواع، وينفصل عنها بخاصية العقل.[2]

و بالرجوع للتصور الديني القاضي بأن الإنسان خلق على نموذج إلهي بمعنى أنه يتشكل من لطيفة ربانية هي الأصل الروحي له، فإن **النزعة الإنسانية** عند جيمس تؤكد على وجود صفات مشتركة بين البشرية جمعاء، فهي تنطوي على نظرة عالمية كونية شاملة، كما تؤكد على أن وجود أهداف في حياة الإنسان أيا كان، تشكل منه كائنا مثاليا، ليس بمعنى إفلاته من الواقع وإنما انغماس إيجابي فيه، وانسجام مع واقع الحياة، بشكل متناغم مع متطلبات **الطبيعة البشرية، ودوافعها الفطرية** وميولها النفسية والحيوية الداعية للإشباع.

لأن الطبيعة البشرية تتميز بالمرونة و السيولة ، إنها قابلة للتشكل حسب إرادة الإنسان، والابتكار في الطرق والأساليب الناجحة، وهي فكرة يلتقي فيها **جيمس** مع **نيتشه**، إن اختيار هدفا معينا يتطلب من الإنسان التضحيات الجسام، كأساس لتحقيقه، بهذا نجد تصور جيمس للإنسان كغاية في ذاته، وكموضوع

---

[1] – عبد الوهاب المسيري،موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية ، الجماعات اليهودية: التحديث و الثقافة،المجلد الثالث، دط ، دت. ص 546.

[2]- Richard Rorty "Universalisme moral et tri Economique"
Rencontres Philosophiques de l'UNESCO
http://www.unesco.org/phiweb/txt/fr/2rpu/rort/rort.html

جدير بالبحث هو **القضية الفلسفية الإنسانية والمشكلة الميتافيزيقية**، التي دافع عنها جيمس في فلسفته.

إن السؤال: من الإنسان؟ سؤالا جوهريا: لا يتمحور أساسا حول: ما هو أصل الوجود الإنساني؟ لأن هذا الطرح يعود بنا للماضي، وإنما التساؤل عن: ما هو وضع الإنسان الذي يجب أن يؤول إليه؟ سؤالا هاما طالما يتجه بعقولنا ونظرتنا نحو المستقبل ، بهدف إنشاء **إنسان من نموذج جديد**، إنسانيا **قويا**، يتميز بالذكاء المطلق و يتمرد على كل العقبات، و القيم ، هذا النموذج الذي صرح به **نيتشه** وهو الإنسان الأعلى القاهر بإرادته وقوته كل التحديات، والقادر على تحطيم أصنام مختلف المعتقدات والشرائع، إلا أن جيمس ترك نموذج إنسانه – إن صح التعبير – ضمنيا، يكشف عنه المعيار البراجماتي في المستقبل، فمفهوم جيمس للإنسان، يؤطر مشروع فلسفته المعبر عن نظرة ديمقراطية، لأنه يتسع لكل معتنق لأفكاره، ومتعاون باسم الإنسانية جمعاء مبدؤه: لكل إنسان حق الحياة الكريمة، والتفتح اللازمين له بما هو كائن بشري، لا شك أن هذا التصور إيجابي وفي المنظور الأخلاقي تحديد من هو الإنسان عند جيمس؟ خلق لديه الاستعداد لتقديم كل النصائح، والقيام بالترتيبات التي تجعل منه إنسانا متفوقا وناجحا، ومتصف بالذكاء المطلق، والاستعداد للإبداع والابتكار، وتوفير الثراء المادي والمعنوي، إنسانا فعالا ايجابيا، يطلب المزيد من الانتصارات وهي نبوءة تحققت في الفرد الأمريكي الذي صار عاجزا عن وضع حد لرغباته الجامحة في التفوق والكسب وفرض السيطرة، على باقي شعوب العالم، نبوءة وجدت ضالتها في إطار العولمة، المعبّرة عن مصالح طبقة اقتصادية تسعى لتوسيع مجال سيطرتها باسم مجتمع المعرفة، وهكذا فإن الإيمان الواسع بفردانية الإنسان يضع الأساس لتأليهه الذي يحوله إلى شيطان مارد، فالنزعة الإنسانية عند جيمس قامت لتحرر الإنسان من السلطة التقليدية الدينية

الكهنوتية، والفكرية القدرية، لكنها أسست لاستعباده من قبل قوى حيوية هي الاندفاع الغريزي، والنهم الذي لا يرتوي لحب السيطرة والتملك.

والسؤال المطروح: من يكون إنسان جيمس؟ هل هو إنسان واقعي طبيعي أم إنسان خارق للعادة فوق طبيعي كما عرف عند نيتشه؟

النزعة الإنسانية عند **جيمس** تتصور الإنسان ككائن طبيعي، يبادر للقيام بمحاولات عملية جديدة لفهم عالمه الداخلي، واستغلال إمكاناته البشرية للسيطرة والتحكم في محيطه، والتكيف مع ظروف الحياة بأرقى السبل، لذلك فهو يستفيد من تراكم تجاربه، ويوسع في أنماط إدراكه ومعارفه وتعقله، واضعا مشاريع للمستقبل. مؤمنا بنسبية الواقع ومرونته وقابليته للتشكل، وهذا لا شك موقفا إيجابيا، بالمقابل هناك موقف أكثر تطرفا والمرتبط بتصور الإنسان الذي يخلق واقعه، ويشكل عالمه وحياته حسب إرادته، تشكيلا قابلا للتعديل والتطوير باستمرار. فإنسان جيمس الواعي، الفاعل النشيط المثابر المبدع الطامح المنفتح على الواقع والمتطلع للمستقبل، واسع الأفق في مشاريعه وأهدافه وأغراضه، ينتهي به طموحه في الواقع لإنية متطرفة، تفكك أسس نزعته الإنسانية، نتيجة للإغراق في الاهتمام بالذات الناتج عن تقديسها كقيمة مطلقة.

إن الاستمرار في قبول وتصديق تصورات الإنسان عن نفسه، والإيمان المطلق بقدراته، ككائن قادر على القيام بمبادرات حرة خلاقة، عقيدة أو حكما أقرب للحلم منه للواقع، لأن الإنسان في الأصل مخلوق عاجز قاصر منفعل غارق في عالم ، لم يكن لاختياره دخل في الوجود فيه، ووضعيته ووجوده مشروطين بحتميات متضاربة معقدة، تفرض عليه الكفاح باستمرار من أجل الحياة.

إن الإعلاء من الذات الإنسانية وإرادة تحقيق المنفعة والنجاح والسلطة من العوامل المعجلة على الرواج والإثارة ولفت الانتباه لفلسفة جيمس، ذلك أنها

أقرب للحماس العاطفي منها للتعقل الموضوعي،خاصة وأن فكره يمت بوشائج صلة قوية **للداروينية** التي أرجعت الإنسان لأصل لا إنساني،[1]

بهذا فتح الباب على مصراعيه لإعلائه، وتقديسه مما سيتسبب في حدوث الكارثة الناجمة على جبروته وتهوره، وسيعجل بحلول **نهاية مأساوية** للعالم وللبشرية، إن إنسان جيمس المتعطش للسلطة والنجاح يعشق ذاته الميالة للسيطرة بلا انقطاع، ليس على واقعه ومحيطه وذاته وحسب، وإنما التطلع للسيطرة على العالم وفرض نموذج محدد عليه، وهذا ما تسعى لبلورته **العولمة** أعني نزوع **سيطرة الأمريكي** على العالم ، خصوصا وأن جيمس متأثر بالداروينية.[2] وملامح قانون " **البقاء للأقوى** " حاضرة بقوة في أفكاره وفلسفته *، وإن كان هذا القانون كما يرى داروين ذاته لا يصلح لتفسير أخلاق عصور الحضارة والمدنية، لأنها تساعد الضعيف والمريض والمحتاج، من هنا اعتبر الأخلاق الإنسانية غير خاضعة لقانون التطور (...) ورفض الأساس الديني للأخلاق الحديثة، وسار على نهجه معظم فلاسفة التطور من بينهم جيمس، إلا أن التناقض الذي تحتم عليه الوقوع فيه، نابع من التضارب القائم بين قانون " البقاء للأقوى " وهو بيولوجي مادي، وقاعدة " البقاء للأصلح " كأساس أخلاقي روحي، وهو تناقض صارخ في الأخلاق النيتشوية والدعوة التي هزت العالم، وزحزحت منظومة القيم بشراسة رهيبة، تجسد ذلك في السياسة الحربية والعنف المسعور الهتلري، وسيتجسد في الحرب اللطيفة والسياسة الناعمة للأمركة (العولمة) المطالبة في جرأة بتطبيق نتائج التنازع على البقاء في المجال الأخلاقي

---

[1] - عبد الرزاق الدواي، موت الانسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ص 18.

[2] - Cartwright John ; Evolution and Human Behavior : Darwinian . Perspectives on Human Nature ; illustrée, réimprimée ; MIT Press, 2000. P 21.

*- المتصفح لمؤلفات جيمس يجده متأثرا بنظرية التطور ، حيث اقتدى بكل من دارون وسبنسر Darwin & Spenser .. انظر مؤلفه: ارادة الاعتقاد ، و مبادئ علم النفس.

العام، وهي دعوة لفرض أخلاق السادة الأقوياء على العبيد الضعفاء الأشياع في العالم.

إن الفارق القائم بين " إنسان " **نيتشه،** و" إنسان " **جيمس** يبدو طفيفا، إنه فارق في الطاقة الاحتمالية والقدرة على الصبر والثبات عند الثاني، لكنهما متحدين في الرؤيا لهدف واحد محدد، وهو التطلع للسيطرة والجبروت، وبهذا تنتهي النزعة الإنسانية عند جيمس في الترجمة الواقعية إلى **أسطورة** فلسفية عن **الإنسان الأمريكي**، السوبرمان المهيمن **راهنا** على الكون، و الذي هو بصدد طلب مزيدا من السيطرة

و الهيمنة و القبض بيد حديدية على مصير العالم (...) و السؤال المطروح:

ما هو الحل لأزمة الإنسان الراهن ، ما هو السبيل للخروج من مأزق الكارثة العولمية الراهنة؟

ما هو المخرج من هذه الصراعات التي تضايق حياة الإنسان، وتزيدها تعقيدا يوما بعد آخر؟

ما هي الوسائل التي من شانها التعجيل بحلول للحد من هجمات السوبرمان الامريكي الداروينى النيتشوي المسعورة و المتكالب على العالم ؟.

فالمذهب البراجماتي والنزعة الإنسانية الجذرية فيه، يفسرا الملامح والسمات العقلية والخلقية والوجدانية لـ " جيمس "، إذ التأليف الجديد لعناصر ومشكلات قديمة في الفكر الفلسفي، بعث وإحياء لمشكلات أصلية في الفكر القديم، والفلسفات التي وضعت مشكلة الإنسان في الميزان، اعتقادا منها بأن غاية التفكير الفلسفي هي محاولة هداية الإنسان إلى جادة الصواب، إلى ما هو الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه في الحياة؟

منطلقها الإيمان **بقداسة الشخصية البشرية**، إيمانا راسخا قويا، والفلسفات الإنسانية قديمها وحديثها متأرجحة بين تأنيس وتأليه الذات البشرية، وهو تناقض نعثر عليه في بعض ثنايا إنسانية جيمس، ولكنه يحدد مساره **الإنساني المتكامل**

في محاولته للخروج " بالإنسان " من دائرة العبثية و العدمية، إلى فضاء الحياة الرحب المفعم بألوان النشاط المتدفق الخلاق، والذات المبدعة **والإنسان الأعلى،** فلسفة توكيد الذات، والبحث عن نمط من الحياة أفضل من الراهن، في مقابل فلسفة إلغاء الذات البشرية.

إن مضمون النزعة الإنسانية هو الإعلان عن ميلاد مفهوم جديد للإنسان أكثر انفتاحا وإيجابية ومرونة ونسبية، مفهوما يتسع كلما ضاق حد " المطلق " كسلطة فكرية قاهرة لإرادة الإنسان الحرة وقدراته على الإبداع والجدة والتحدي والتطور، وإثبات الوجود، ولذلك فالنزعة الإنسانية في البراجماتية مدركة لظاهر الصراع بين مفهوم الإنسان ومقتضيات الحياة، **كإطار جديد للصراع** بين الإنسان والطبيعة، وبهذا فالخطاب البراجماتي الإنسي على درجة من الاتساع بحيث يسمح بتدخل واستدراج عناصر متناقضة، إنه يقدم نموذجا جديدا لقراءة العلاقة بين الذات والموضوع، وبين الإنسان والعالم، بين الفرد والطبيعة، علاقة مؤسسة على الصراع الذي تفرضه الطبيعة وطبيعة الإنسان ذاتها في واقع الحياة، وتقوده قوانين التطور، وهي رؤيا منطلقها المفارقة الغريبة في تقديس الذات في عرف التوجه اللبيرالي، في رؤيته بأن فردانية الإنسان أسمى من كل الاعتبارات، لكن هذه النظرة مآلها تدمير الإنسان، والإهانة الموجهة لكرامته، رغم أن فلسفة جيمس وفكره يشكلا خلاصة الثقافة والشخصية الأمريكية، فهي بمثابة إنجيل النهضة الأمريكية، قوامه عرض مشروع تغيير الفرد الأمريكي وتطوير المجتمع تطويرا جذريا، الذي يتخذ من الإنسان محورا له، لأن هدفه خلق " **الإنسان الأعلى**" على **النموذج الجيمسي**، ولأن مضامين فكره تشكل مفتاح لعلم الحاضر، والمستقبل، حاضر الثقافة والمجتمع الأمريكي، ومستقبل انتشار موجة البراجماتية الداعية **لمشروع النظام العالمي الجديد**، ولهذا فإن فلسفة جيمس، وبالنظر لاهتمامه بالإنسان كمحور في تأملاته واجتهاداته- كما ذكرت - أسست

لعلم الآفاق المشخص في العولمة، وأدت لانقلاب الخطاب الفلسفي العبثي إلى خطاب جدي، ولكنه حامل لبذور العدمية.

خاتمة.

إن القراءات الجافة المجحفة لفلسفة جيمس، القراءات الخالية من آلام المخاض النقدية، لم تنوه بالآثار الخطيرة التي تعلي من شأن " **الإنسان الطبيعي** " الغريزي وتشيد بقيم التطور والبقاء، لم تنوه بمدى إسهام البراجماتية في فرض الاعتراف والتأسيس لمشروع المقاربة الجديدة حول " **عظمة الإنسان** "، و الذي دخل طور الإنجاز على حساب خصوصيات وثوابت و**مقدسات** من طبيعة روحية ذاتية وموضوعية، ثقافية محلية، ودينية عالمية لا تقوم على مبدأ الولاء للإنسان الطبيعي والاعتراف بدوافعه الغريزية، بقدر ما تميل لترجيح كفة **مثله الروحية** العليا، ذلك أن القضايا التي أثارتها البراجماتية الإنسانية لم تخرج عن إطار الداروينية الاجتماعية وقاعدتها اللاإنسانية المتمثلة في « **البقاء للأقوى**»، وبهذا فهي فلسفة « **عقلية اللامعقول** ».[1] على حد تعبير بيار قوشوت Pierre Gauchotte ونظرية تفسر الأعلى والأرقى برده للأدنى، وحضارة العودة بالإنسانية إلى البدائية، و عليه:

ما هو الحل لهذه للمعضلة التي تجتاح العالم باسم قيم العولمة والثقافة الإنسانية والسلام العالمي كامتدادات طبيعية افرزتها البراجماتية الانسانية الزائفة؟ . وما هو السبيل لاخماد سعير الاندفاع الغريزي، والنهم الذي لا يرتوي لحب السيطرة والتملك .

---

[1]- Pierre Gauchotte, Le pragmatisme, Editions des presses Universitaires de .France, P.U.F, 1992 – Coll ¨ que sais-je ¨ ? N° 2688 . p 96.